**وظيفة الحكي أو القص:**

رافق القص الإنسان منذ القدم ؛ حتى أنه كثيرا ما عبر عن يومه الذي يعيشه ، وعن أمسه الذي عايشه ، وعن غده الذي يتمنى أن يعيشه ؛ سایرته وسايرها حتى أنها أبقت على الحياة في بعض الحضارات ، وعند بعض الأمم فمن منا لا يعرف سحر "شهرزاد" في "ألف ليلة وليلة " حيث كانت تستعمل الحكاية للإبقاء على حياتها في قصصها للملك شهريار بل اعتمدتها طريقة في العلاج النفسي و العصبي، ولعل القبائل العربية القديمة أيضا كان لها راوية للقصص يجمع من خلاله كل أفراد القبيلة ويسرد عليهم حكاياته مسليا حينا ، واعض مرشدا أحايين كثيرة. ووظائف القص تتصل أساسا برواية الحكايات ومدى استجابة المجتمع الشعبي له ؛ فوجوده : " مرتبط بما يؤديه من وظائف في البناء الاجتماعي للمجتمع الشعبي ، فهو جزء من البناء الثقافي ، يعكس الوجود الاجتماعي ، نجده يتضمن صورا من الواقع الاجتماعي ، بقيمه ، وعلاقاته..."15.

**الوظيفة التعليمية:** تعالج الحكاية الكثير من القضايا التعليمية والتثقيفية خاصة الحكي الأسري منه ؛ فهو موجه أساسا للطفولة في مراحلها الأولى خاصة قصص الحيوان منها التي وضعت في الأساس لذلك الغرض، وهو يعمل على بث القيم السامية والمبادئ السمحة في نفوس البراعم التي تتربى على حب الخير، والتسامح ، ونبذ الصور القبيحة ومساوئ الأخلاق ، والشر الذي تصوره الشخصيات الشريرة ، التي ينبذها الطفل ويجتنبها ويحاول الابتعاد عن كل صور الفساد و الغش و الرذيلة ، ويقبل بكل سعادة على الجمال و الخير والحب والتعاون ، فينمي خيالهم ومقدراتهم الذهنية" ... ويقدم لهم النموذج الأمثل للسلوك ، ويساعدهم على استيعاب العلاقات الاجتماعية ، لتهيئتهم لأن يكونوا أعضاء في الجماعة..."16.

هي إذا تعمل على التوعية والتربية والتعليم، ومن جهة ثانية تدفع للتغيير والإصلاح حتى تنتصر للمبادئ السمحة، التي من شأنها أن تنبذ الفوارق الاجتماعية والطبقية، وتعالج المشاكل العالقة إن على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي، والثقافي. فهي وظيفة نقدية تعمل على تقديم رسائل واضحة ومشفرة لمجتمع القص؛ لتحسسه بخطورة الوضع أو لتعرفه بكل ما يدور حوله من باب الإعلام والتوعية والإصلاح وتقدير الأوضاع المحيطة والمتصلة به عن قريب أو بعيد؛ كما أن الحكاية الموجهة للكبار تعمل على وضع الأمور في نصابها الحقيقي اعتمادا على وسائل توضيحية مباشرة أو بالإشارة، كقصص" كليلة ودمنة" وتجتهد بالخصوص في التجمعات الشعبية ، كالأسواق ، و المقاهي الشعبية ، وتجمعات الأحياء ، أو في الاحتفالات الجماهرية الشعبية على أن تأخذ : " فيها القصص ذات الهدف الأخلاقي و الوعظي مكانة مهمة بين القصص المروية ، كما أن تربية الوجدان الجمعي ، وغرس القيم الاجتماعية المثالية تظل موضوعا أساسيا من الموضوعات التي ترسم لجمهور القصص من الصغار والكبار على السواء صورة الإنسان الأمثل، الذي يطمح المجتمع أن يكون عليه الفرد."17. لعل وظائف الحكى أو القص لا تظهر جلية الواحدة تلوى الأخرى ، بل تتداخل فيما بينها حتى تشكل كلا متكاملا ، ومزيجا من الوظائف القيمية ، مشكلة من الوظائف الاجتماعي ، الأخلاقية ، والنفسية التي تعمل على تلبية حاجياتهم البيولوجية ، و تنمية سيكولوجية الأفراد و الجماعات ، والتنفيس عن المكبوتات الجنسية ، وتعمل على تحقيق أمانيه و أحلامه فمشاركته في عملية القص تزوده بالراحة النفسية التي تجعله يعبر عن مكنوناته ، ومكبوتاته ، : " لقد أصبح الحلم وسيلة للتنفيس عن المكبوتات التي لا يستطيع أن يصرح بها الإنسان حتى لنفسه ...وكان لابد أن يحل الحلم محل تحقيق الرغبات الغريزية ، ولما لم يكن هناك اختلاف كبير بين الأحكام الليلية و أحلام اليقظة لهذا كانت الأفكار تتداعی وتجد طريقها من خلال الحكايات و التي يجد فيها كل من الراوي والمستمع حجة للتنفيس عن مكبوتاته"18 للكما تجعله يسقط حياة الأبطال على شخصيته ، وبالخصوص إذا ما كانت بطولات أشخاص من التاريخ ، ويا حبذا لو كان من التاريخ الإسلامي الذي يشعره بالروح القومية وحب الانتماء

وهي وظيفة أخرى من وظائف الحكي ألا وهي الوظيفة العقدية أو الدينية والتي تحفف مطلبا جديدا يشكل جزءا كبيرا من شخصيته . وأخيرا تحقق له وظيفة التسلية والمرح ، وتخرجه من حلقة الشعور بالضيق إلى فضاءات أرحب تشعره بالحرية ، وتخفف من إحساسهم بالقيد والشرط. فحياته اليومية بكثرة أعمالها وتراكمها ، تؤدي حتما إلى التعب و الملل والضجر ، لذلك جنحت الكثير من الحكايات إلى محاولة الخروج من هذه الدائرة التي ترهقه وتضغط عليه ، وتدفعه للاستياء و القلق فيلوح هذا النوع من القصص ليدفع عنه هذه الصور السلبية ؛ ومنها : النوادر ، والطرائف ، وقصص الشطار و الشخصيات ت المسلية كجحا ، وأشعب ، وحديدوان وغيرهم كثير ... وهذه الشخوص الطريفة التي تعالج موضوعاتها ومشاكلها بطرق فيها الكثير من المزح والضحك والطرافة ، تجدد فكره ، وتبدد مخاوفه وتدفعه للانطلاق والتغيير والتجديد.

**أبعادها:**

للحكاية الشعبية أبعادا متنوعة ومختلفة بتنوع موضوعاتها ومضامينها واختلاف مروياتها منها :

**البعد الواقعي:**

لاشك في أن الحكاية الشعبية تطرح موضوعات مستمدة في الأساس من الواقع الإنساني المعيش، فمن غير المنطقي ولا المعقول أن تطرق موضوعات لا علاقة لها بحياة الفرد ولا بواقعه ، فهي تستند لوقائع حدثت بالفعل واكتست طابعا بطوليا ؛ غير أن ارتباطها بالواقع الاجتماعي ذي الأبعاد الواسعة ليس محصنا ذلك أنها : " الحكاية الشعبية ترتبط بالواقع الاجتماعي بكل أبعاده لكن هذه الواقعية ليست محصنة ، إذ تكثر فيها الصدفة كما أنها قد تكون حكاية الحيوان سواء أليف أو حيوان خرافي ..."19؛ وبما أنها حكايات ذات بعد واقعي فهي تصب في موضوعات اجتماعية ونفسية يعايشها الفرد تتميز بالمغزى والعبرة ، وهو الهدف الذي يحاول الكاتب عرضه أو الوصول إليه أو هو الدرس و العبرة التي يريد منا تعلمها لذلك يفضل منا قراءة القصة أكثر من مرة حتى يتسنى لنا فهمها واستيعابها واستخلاص الغاية والهدف منها ، واستبعاد الأحكام المسبقة و التركيز على العلاقة بين الأشخاص ، و الأحداث، و الأفكار المطروحة وربط كل ذلك بعنوان القصة و أسماء الشخوص و طبقاتهم الاجتماعية ؛ تحث على التحلي بالصبر أثناء الشدائد ، وتمجد الأخلاق الحميدة ، وتسمو بالمبادئ السمحة، تنطوي على سلوكيات الفرد اليومية وتكون نهايتها بحسب موضوع الحكاية سعيدة أو حزينة، تاركة في طياتها بصمتها بمثل شعبي أو حكمة يجعله تنفرد عن سائر الأنواع الأخرى ، و إذا كانت الحكايات و الأساطير متشابهة : " من ناحية الوظيفة الرمزية ، فإن بينهما اختلافات جمة من بينها أن الأساطير مغرقة في الخيال ، بينما تتسم الحكايات بالواقعية فأغلب الأحداث المروية في الحكايات تبدو بديهية وقابلة للتحقيق في أرض الواقع ، بينما تبقى الأساطير بعيدة كل البعد عن الواقع ، لأن شخوصها بكل بساطة آلهة أو أنصاف آلهة , وفيها تكون النهاية مأساوية ، وتنتهي الحكاية نهاية سعيدة .20"

وبالإجمال نستطيع أن نقول إن القصة أو الحكاية تتناول قطاعا عرضيا من الحياة وتحاول إضاءة جوانبه، أو تعالج لحظة وموقفا تستشف أغواره... تاركة أثرا واحدا أو انطباعا محدودا في نفس القارئ وهذا النوع من التركيز والاقتصار في التعبير وغيرها من الوسائل الفنية التي تعتمدها الحكاية أو القصة.21" البعد الاجتماعي: تتمحور مضامين الحكايات حول الفئات الاجتماعية وعلاقاتها ببعض، فتتناول المحيط الأسري ومظاهر سلوكيات الأفراد والجماعات ومجمل المناسبات، والعادات والتقاليد و المعتقدات ، المتوارثة جيلا بعد جيل يجمعهم ملك مشاع لجمهور عريض كبير ، تجمعهم لغة واحدة أو لهجة واحدة ينتمون لمحيط شعبي مشترك يلزمهم بضرورة الحفاظ على هذا النسق الاجتماعي المعبر عن الملكية المشتركة ، التي تدعم المعتقدات ، والقيم الاجتماعية الموروثة و المكتسبة ، المحافظة على استقرار النمط الحضاري والذي لا يسمح بالخروج عن منهجه أو قواعده المرسومة بحسب الأعراف مثلما يسميها : " کارل يونغ "بـ" الأنماط الأصلية" ، وبحكم هذا الارتباط وهذه العلاقات بين الأشخاص التي تحكمها معاملات يومية اجتماعية أو اقتصادية قد تكون غير متكافئة في كثير من الأحيان :" ...واتسم بعلاقات اقتصادية واجتماعية بعيدة كل البعد عن التكافؤ بين ملاك كبار ، وبين فلاحين مستعبدين بدرجات متفاوتة ، يعكس من ناحية القيم المعنوية للطبقة السائدة ، والتي تتمثل في النزوع إلى الثبات ، و محاربة التجديد ، وتقديس الماضي على حساب الحاضر والمستقبل ، والإيمان المفرط في السلطة ، والتسليم بعجز الفرد عن تغيير الأوضاع السائدة ، وتثبيت فكرة وجود التفاوت و التسلسل في المراتب 22." لذلك فيأمل الفرد

في ظل الجماعة الوصول للسعادة و الغبطة بشتى السبل المطروحة لضمان ذلك ، والحكاية الشعبية في : "كما يراها أندريه جولس تحقق للإنسان الشعبي حياة العدالة و الحب التي يحلم بها .23".

ولعل تلك التمظهرات التي نجدها حاضرة في النص الحكائي من شأنها التعبير عن الأنساق الاجتماعية ببذخ كبير ورفاهية كالحديث عن دورة الحياة وما تتطلبه من علاقات اجتماعية كالولادة والختان والزواج وكذا المناسبات الدينية وشعائرها ، فكل هذا يتطلب الجماعة . **البعد السياسي:**

قد تتناول الحكاية الشعبية قضايا ومسائل لها علاقة بالحكم أو الملك أو السلطة و الجاه والمال، فتعمل من خلال أحداثها على دحض الكذب الذي يدعيه بعض السياسيين مثل حكایات كليلة ودمنة، التي تتخذ من الحيوانات شخوصا تتقمص أدوار البطولة تنتقد الأوضاع السياسية الفاسدة المسيطرة على البلاد، وتحاول إيجاد حلول لها بطريقة ذكية من خلال تلك الوظائف التي تؤديها الحكاية الشعبية . وقد تطرح الحكاية هذا البعد من منظور مختلف تماما ، كأن تطرح القضايا القومية الوطنية فإما أن تعرض دفاع الأبطال عن أوطانهم من جرائم المحتل وتشحذ في نفوس المستمعين هممهم وتدفعهم للذود عن أوطانهم ، أو أنها تجعل من أبطالها صورة مشرفة تكون رمزا للبطولة والشجاعة والهمة والتضحية وتبرهن بأعمالها عن الرغبة في الانعتاق والتحرر، هذا ما عبرت عنه الدكتورة "روزلین لیلی قریش" في حديثها عن هذا النوع من الحكايات في فترة الاستعمار الفرنسي على الجزائر وصداه على جمهور المستمعين والرواة على السواء تقول : " إن القصة الشعبية الجزائرية قد ملأت فراغا كبيرا في الحياة الأدبية والثقافية والاجتماعية لدى عامة الشعب - خاصة أواخر القرن الماضي و أوائل القرن الحالي - حيث عمل المستعمر بكل قواه على مطاردة اللغة العربية ومحاولة القضاء عليها ، وكان أن انزوی الأدب الرسمي وانحصر في فئة معينة هي التي تلقت تعليما عربيا دينيا في الغالب فكان أدبا ضعيفا يتناول موضوعات بعيدة عن اهتمام الشعب وعن قضاياه ومشاكله ، وهنا برز دور الأدب الشعبي - ولا سيما القصة - في مخاطبة الشعب بلغة يفهمها وفي معالجة موضوعات تمس صميم حياته وتثير كامن مشاعره وتلهب حماسه 24". هذا هو الهدف الوطني السياسي الذي تعمل الحكاية الشعبية على توريثه للأجيال فهدفها : " هو إنقاذ ماء الوجه ، والتذكير بالانتصارات الماضية لنسيان ذل الحاضر ..."25. و : " يعمل المداحون على إيقاظ الروح الوطنية ، فيثيرون في نفوس مستمعيهم الحياة من جبن الجيل الحالي ، ويقدمون بطولة القرون الإسلامية الأولى كنموذج يجب على معاصريهم أن يقتفوا أثرهم"26.

**البعد الديني:**

كان ولا يزال تعلق المجتمع الشعبي بالدين وهو روح الأمة ودليل انتمائها العقدي منذ القدم ، ولما كانت الزوايا والكتاتيب هي المكان الأول الذي يستطيع من خلاله المرء أن يأخذ زاده الفكري والديني منها ، وبحكم الظروف الكثيرة التي دفعته لذلك فقد ظهرت النتيجة من خلال معتقدات هذا الشعب والتي راحوا يمارسونها باستمرار خاصة أثناء سمرهم الليلي وحكاياتهم الشعبية في وقت منعت القوات الاستعمارية المجتمع الشعبي الجزائري من مزاولة تعليمه باللغة العربية لجأ السواد الأعظم إلى التعليم في الكتاتب و الزوايا ، فكان تعلقهم بالدين واللغة هو عنوان الهوية الجزائرية العربية الإسلامية ، هذا ما طبع معتقداتهم عاداتهم وتقاليدهم التي يمارسونها باستمرار وبخاصة ما تعلق فيها بالقص حينما مازجوا في موضوعاتهم بين قصص الأولياء سواء كانت حكايات محلية متعلقة ببعض الأولياء الصالحين المعروفين بكراماتهم و أعمالهم التقية الورعة الطاهرة كشخصية الولي الصالح " عبد القادر الجيلاني أو الجلالي" في حكاية :"سي ساني"، أو كانت محلية خاصة ببعض الأولياء المعروفين محليا كأبناء المنطقة أو البلدة من رجالها الصالحين لا تتجاوز شهرتهم حدود القرية أو البلدة التي يتواجد فيها ضريح الولي لهم أيضا کرامات وحكايات عجيبة غريبة ، وفي هذا النوع من الحكايات يحفظ السكان من أهل المنطقة الروايات المختلفة

عن نصوص الحكايات في حدود الدائرة المكانية والفترة الزمانية أما إذا ما خرجنا عن هذه الحدود وهذه الشروط تصبح هذه الحكايات غير معلومة ولا معروفة وقد يجهلها حتى بعض المقربين من الناس في القرى المجاورة.

كما قد يظهر هذا النوع من القصص بقايا المعتقدات القديمة، كتقديس الأشجار والأحجار أو الصخور و الأضرحة و إقامة الولائم في مقاماتها ، وترد حكايات أخرى في هذا الباب تختص برواية حكايات الأنبياء وأشهرها على الإطلاق قصة :"سيدنا يوسف" أو "سيدنا إبراهيم خليل الله وابنه إسماعيل" أو حكايات بعض الصحابة والمقربين وهذا النوع من الحكايات تكثر روايته في المناسبات الدينية كيوم عاشوراء أو قص حكايات سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عيد مولده المجيد. الكل هذا تتفق المجتمعات على اختلافها بالتمسك بمعتقداتها وممارساتها وطقوسها وعاداتها وتقاليدها ، وقد تتزايد أهميتها في حياة الفرد والجماعة ؛ لأنها تمثل جانبا معينا من ثقافته التي تحتل مكانة عالية ودورا فعالا في تكوين سلوكه وتفكيره وتصوره لمحيطه الخارجي ، والاعتقاد في وجود عالم خفي ميتافيزيقي مجهول يختلف عن العالم الذي نعيش فيه ، ومن هنا تكمن الصعوبة في الإلمام بجميع المعتقدات التي تخص كل مجتمع وهذا لأنها : " خبيئة في صدور الناس وهي تلقن من الآخرين ، ولكنها تختمر في صدور أصحابها وتتشكل بصورة مبالغ فيها أو مخففة يلعب الخيال الفردي فيها دوره ليعطيها طابعا خاصا.27". مع توفر الحكاية الشعبية على مجمل مقومات القصة الحديثة ؛ من استهلال ومتن فأحداث و عقدة بالإضافة إلى شخصيات وخاتمة فإنها تتميز بخصوصية العفوية و الشفاهية عند إلباس الحكاية الشعبية خواص المجتمع الشعبي سواء تعلق الأمر بالأخلاق أو المعتقدات أو العادات والتقاليد .